لغة العرب

مجلة شهرية ادبية علمية تاريخية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الجزء الثالث عن رمضان سنة ١٣٢٩ == ايلول سنة ١٩١١

آثار سامرآء الخالية وسامرآء الحالية

سامرآء من المدن القديمة الحضارة والعمران ، قد سبق وجودها ظهور الاسلام بقرون عديدة ، ومن بعد ان بلغت ابعد شأو في المدنية ، اخذت بالهبوط والهوى شان كل موجود ، حتى كان عصر المعتصم فقام وبناها ثم نزلها سنة ٢٢١ هـ (== ٨٣٦ م) ، ثم جاء بعده الخلفاء العباسيون وكل منهم يبتني له فيها قصراً او صرحاً ، حتى غدت غادة مدن العراق ، بل واجمل غاداتها ، واخذ يقصدها القاصي والداني من

اهل النزهة والانس .

وكان فى جوارها من سابق العهد اى قبل الاسلام عدة اديرة نصارى كلها شهيرة ، منها : (قلاية الممر او عمر نصر) ، وكان من منتزهات آل المنذر بالحيرة ، (ودير مار سرجيس) ، (ودير العذارى) ، ودير السوسى ، وغيرها .

اما اسمها فقد اختلفت الروايات فيه وفى معانيها ، وكلها لانصيب لها من الحقيقة ، واصدق لغة رويت فى اسمها هو سامرآء (بفتح السين بعدها الف يليها ميم مفتوحة وبجانبها راء مثقلة مفتوحة ثم الف ممدودة وفى الآخر همزة) . واما قولهم ان الرواية الصحيحة هى سر من رأى اوسام راه فهذه وغيرها من مخترعات المخيلة ، ومن التآويل التى انتجها قرائح بعضهم اجابة للعقل الذى يحب الوقوف على اسرار الكون والاكتفآء بما يرضيه . ولو فكروا قليلاً لاقروا ان تاويلهم بعيد لقدم ورود الاسم ، ولعله من وضع البابليين او الاشوريين او الكلدانيين او غيرهم من الاقوام الخالية . فكيف يطلب له معنىً فى اللغة العربية .

وقد ذهب مدير هذه المجلة الى مشاهدة مايجرى فى هذه المدينة من التنقيب والحفر عن آثارها القديمة فكتب النبذة الآتية .

وقد اعتمد فى اغلب ماأثبته هنا على كتاب « سامراء » للدكتور هرتسفلد المطبوع فى برلين سنة ١٩٠٧ وعلى ماسمعه من المعمرين وشاهده هو بنفسه : (لغة العرب)

نظرة عامة في سامرآء وفي التنقيب الجاري فيها .

منذ غرة هذه السنة اى ١٩١١ م اخذت بعثة المانية بالشروع تنقيباً عن آثار سامرآء . وقد نال الامتياز بالحفر حضرة العلامة المشهور الاستاذ فريدريك صارة Frédéric Sarrè البرليني الرحالة ، الذى يعرفه اهل الشرق والغرب برحله المتعددة الى بلاد فارس وتركستان والاناضول (بلاد الروم) وبين النهرين (الجزيرة) وعهد الى اللوذعى الجهبذ الدكتور هرتسفلد Herzfeld من اساتذة جامعة برلين للاخذ بهذه الاشغال المهمة . واهل بغداد يعرفون الاستاذ المذكور حق المعرفة . لاسيما الذين واجهوه وشافهوه ، اذ عهدوا فيه سعة العلم والمعرفة بكل مايتعلق بالشرق وآثاره . وبالاخص بكل مايتعلق بالمسلمين وسابق حضارتهم . وهاهو الان يواصل التنقيب والتنقير منذ اول قدومه حتى هذا اليوم بدون ملل اوضجر اوقطع في الاشغال .

وسامرآء جليلة القدر والشان لانك تجد بين اسوارها مشهد الامامين العاشر والحادى عشر (على الهادى وحسن العسكرى) وسرداب غيبة صاحب الزمان وهى من المشاهد العزيزة على ابناء الشيعة . والا لما كان لهذه المدينة منزلة وقدر عند اهل العصر .

اما موقع هذه البليدة فهو في سهل تموج فيه الاخربة الشواخص موج المياه في البحور الزواخر . وهى كلها من بقايا ذلك العمران الشهير الزاهر الذكر المثبت ذكره في تاريخ صدر الاسلام . وتمتد هذه الاطلال على طول ضفتى دجلة الناشزتين وعلى مسافة ٣٠ كيلومتراً وفي قراب

كيلومترين عرضاً . ومما يشاهد هناك ايضاً اطلال قصور ذات بال ممتدة على الضفة اليمنى من دجلة .

ومنذ بضع سنوات اخذت سامراء بان تستوقف اطيار الافكار على جنباتها . ولاسيما افكار اهل العلم والبحث من مسافرين ومؤرخين ومنقبين . وكان في مقدمتهم الاستاذ الدكتور هرتسفلد . فانه هو ومن جاء بعده زاروا هذه الآثار الطامسة ، والاطلال الدارسة ، المبثوثة بث الجراد على اديم الارض ، ووصفوها قليلاً او كثيراً . كل بموجب علمه ونظره .

على ان هذه الانقاض ليست بشيء يذكر بجانب ماتحت تلك التلول المتراكمة من بقايا الابنية وهي تغشى وجه المدينة القديمة كلها . حتى انك تخال انها امواج بحر هائج صادفته عوامل الجمود فجأة فوقفت مائلة لاحراك لها ولا هبوط على نفسها .

كيف لا ويرى في سامراء آثار جليلة وقد كانت في سابق الزمن مقاماً للعباسيين خلفاء هرون الرشيد . وبقيت نصف قرن عرشاً لهم وذلك من سنة ٢٢١ — ٢٦٢ هـ (= ٨٣٦ — ٨٧٦ م) بل ومرجع دولة الخلافة العظمى ، وان شئت فقل بدون غلو ومبالغة «سرة العالم المتمدن» في ذلك الاوان ، ولذا تراكمت فيها كنوز لايفي تعدادها اللسان ، وثروة تخالها من نتاج عالم الخيال . لامن نتاج عالم المثال . وبعبارة اخرى : كانت سامراء تحقيق حكايات الف ليلة وليلة . التي تخال انها من اوضاع الوهم والتصور الفارغ .

على ان تاريخ سامرآء ليس من الامور المجهولة . فان ما اثبته مؤرخوا العرب ووصافوا بلدانهم المعاصرون لزهوها وغضارتها كالطبري والبلاذري واليعقوبي وغيرهم لايبقى ريباً في صدر المتريب. لاسيما قد كتب اليعقوبي فصلاً نفيساً مفيداً للمسافر فائدة تشبه فائدة كتاب « بيدكر » اليوم ليطلع على مايعثر عليه في تطوافه في سر من رأى وقد عقد هذا الفصل في مؤلفه الجليل « كتاب البلدان » .

اما الاسباب التي حملت المعتصم بالله بن هارون الرشيد على بناء هذه المدينة الطائرة الشهرة فكانت سياسية ودينية معاً . فان الخليفة المذكور كان يتعصر للمعتزلة واى انتصار حتى ان مسلمي بغداد لم يعودوا ينظرون اليه بالعين التي كانوا يرمقونه بها سابقاً . هذا فضلاً عن انه كان اول من انشأ جيشاً من الترك يتقوم من موالٍ (مماليك) اشتراهم التجار من اسواق تركستان وتخوم بلاد الصين حتى اوصل عددهم الى ٧٠٠٠٠ رجل . وذلك بعد ان خلف اخاه المأمون على عرش العباسيين في حاضرتهم .

على ان وجود مثل هذا الجيش في موطن لايخلو من خطر ومن مناوشات بين افراده وبين اهل البلدة . ولذا كانت تكثر الاحداث في الزوراء حتى تجرى الدماء بين القبيلين . وكانت بغداد تمتد يومئذٍ من الكاظمية الى مقبرة الشيخ معروف الكرخي . فلما رأى الخليفة ان لا سلام في دار السلام عقد نيته على بناء مدينة في الموضع الذي ترى اليوم سامراء . وفي هذه الحاضرة اخذ ظل الدولة العباسية يتقلص

اى منذ عهد هذا الخليفة ومن جاء بعده وسببه تكاثر الموالى وتداخلهم فى شؤون الدولة وشؤون قادة اعنتها الامراء العباسيين .

وبعد انمضى اربعون سنة على اعمال هؤلاء الموالى هى اعمال كلها منكرات خلدتها دواوين التاريخ وبطون الاوراق . افضى بهم الامر الى انشاء رتبة (منصب) امير الامراء وكان عبارة عن سيد مطلق اليد فى مايأتيه من الاوامر والزواجر . وقد وقع ذلك عند افول شمس هذه الدولة فى مدة الاربعين سنة . وهذا امير الامراء هو الذى اتفق مع الموالى على اكراه المعتمد على الرجوع الى بغداد وقضاء ثمالة ايامه فى قصره الذى اصبح له بمنزلة سجن ذهى النلواهر.

وعلى اثر هذه الحوادث اخذ سكان سر من رأى بمزايلتها، الجماعة بعد الجماعة، متجهين مرابع بغداد وجنباتها الخضرة النضرة ، ولم تمض ايام كثيرة الا وهدمت سامرا بالسرعة التى انشئت بها . وكل من جاء بعد هذا العهد من كتبة العرب كابن حوقل وابن جبير وياقوت الحموى وابن بطوطة . لم يجدوا لوصفها الا مايفتت الاكباد ويلين الجماد اذلم يعثروا فيها الا على انقاض واطلال لمدينة كانت ازهى مدن الدنيا وابدعها واعجبها واتقنها بناء وهندسة .

واذلم تخرب هذه المدينة لابالحرب ولابالحرق ولا بالاكتساح ولا بزلزلة الارض ولا بمرض من الامراض الوافدة الجارفة بل بمهاجرة اصحابها لها ، بمهاجرة متصلة الاوائل بالاواخر، فلا يأمل الناقب المنقور على الكنوز المذكورة فى كتاب الف ليلة وليلة لان سكانها اخذوا معهم

عند انحدارهم الى بغداد على دجلة كل ما يحمل وينقل ويفيدهم ولو فائدة زهيدة . حتى انهم اخذوا معهم مرادى السقوف وحراديها وابواب الدور . وكل ماضاهى هذه الامور .

على ان العلماء من المنقبين، اهل البحث والتحقيق، لايطلبون اليوم الركائز والدفائن . ولا الاعلاق ونفائس المعادن . انما همهم تنوير الافكار فيما يتعلق بامر تاريخ عمران ابن آدم فى سابق العهد . فالعراق العربى هو من البلاد التى يحق للعلماء ان يتباهوا ويتفاخروا بارضه ، لما فيه من الآثار العادية ، لكل عصر من العصور الخالية ، ومع ذلك لاترى الا اناساً يعدون على الاصابع عرفوا مكانة هذه الديار الرفيعة القدر ، وانزلوها حق منزلتها.

وعلى كل حال فان التنقيب الحديث الطريقة العلمية، يرى لاول مرة فى سامراء ، وهى الطريقه التى اتبعت فى البحث عن آثار الجزيرة (بين النهرين) وبلاد الروم (بر الاناضول) وبلاد اليونان منذ ٧٠ سنة . وذلك نشداً لضالة العمران الاسلامى فى الديار المذكورة ، ومن ثم فالتنقيب الجارى اليوم فى سامراء هو جليل القدر والخطر ووحيد المثال ، لان الدكتور الملامة هرتسفلد يتوخى الطريقة القويمة للبلوغ الى تحقيق مافى الامنية .

هذا فضلا عن ان البحث عن حضارة الاسلام اخذ مأخذاً عجيباً فى ديار الافرنج منذ عشرين عاماً ، لاسيما بعدما اثبته وقرره علماء اذكياء نجباء لايشق لهم غبار، يعدون من الطبقة الاولى فى التدقيق والتحقيق،

مثل تيودور نولدكه Théodore Noeldeke في استراسبورغ . وانياز غولدزيهر في بوداپست . Ignaz Goldziher وكبار المستشرقين الهولنديين مثل ده غوية de Goeje واسنوك هوغرنية Snouk Hugronje وغيرهما الذين غاصوا على درر الحقائق في بحار المشكلات والمعضلات المتعلقة بالاسلام، على وجه لم يسبقهم اليه سابق .

ومما ساعد ايضاً في توسيع نطاق العلوم العربية « ديوان الرقم العربية » Corpus Inscriptionum Arabicarum للدكتور مكس ون برحم Dr Max Van Berchem وكتاب تاريخ الاسلام للبرنس ليونه كايتاني Annali dell' Islam du Prince Leone Caétani وكتاب الموسوعات الاسلامية الذي يولف بمراقبة الاستاذ هوتسما في ليدن وبنظارة مجامع العلم الدولية الاوربية Encyclopédie de L'Islam , sous la direction du Prof. Houtsma ففي هذا الكتاب بل البحر المحيط تجد جميع المباحث المتعلقة بديار الاسلام كلها قاطبة وذلك من بلاد الاندلس الى الصين ، مع ذكر جميع الالفاظ التي وردت على السنة المسلمين ، اوعنت على بالهم ، اوخطرت في خيالهم ، اوابرزته مخيلتهم وقريحتهم ، اواتصلت اليه حضارتهم الخاصة بهم . اما الكتبة الذين يشتركون في انشاء هذا الديوان الواسع المباحث والاكناف فهم عبارة عن جيش لهام ، اسلحته الاقلام ، وميدانه مطالب العلماء الاعلام ، وقد جمعت ابطاله الصناديد المغاوير ، من جميع الديار والاصقاع ، وهم يدأبون

فى التحقيق والتدقيق بدون ان يأخذهم ملل او سأم .

ومما يحسن لنا ان ندونه باحسرف من ذهب هو اننا وجدنا بعض الاخوان المسلمين من ابناء هذه اللغة الشريفة يماثلون الافرنج فى سعيهم هذا كالمصاة تونس ومصر والهند . واما فى ديار دولة آل عثمان فلا نرى فيهم ممن اهتم لهذا المشروع العميم الفائدة ، وعضده بما فى طاقته ووسعه الا الدكتور خليل ادهم بك الرئيس العام لدور التحف الشاهانية

ومما يجب ان يعرفه مطالع هذه السطور ، ان الدكتور الاستاذ صارة Sarre يهتم منذ مدة مديدة بتاريخ الصناعة الاسلامية الفنية ، ولقد ضرب فى الارض متجولا ليبحث فى اسفاره عما يحقق امنيته فى هذه الغاية فجمع مجموعة كلها غرر بل درر من نتاج الصناعة الاسلامية ، وهى اليوم فى بابها يتيمة الدهر ، وخريدة العصر ، لايضاهيها اويدانيها اعاق مهما كان نفيساً ، والخلاصة ان الكلام يطول لذكر كل مايناشر ويبرز من المطبوعات لترقية هذا الفرع من علوم المسلمين وعمرانهم وتمدنهم فرع ، هو كما تراه ، فى المنزلة القصوى من القدر والخطر .

ولتحقيق هذه الغاية على احسن وجه ، وادق اسلوب ، بعث الدكتور صارة المذكور ، دكتورنا العلامة هرتسفلد للبحث عن آثار سامر آه والكشف عن دفائنها ووصفها .

فقد ثبت لديك بعد هذا كله ان لاغاية لهؤلاء العلماء الاعلام الا الهيام بالصناعة الاسلامية الفنية ولاسيما الهيام بفن الابنية ، والاساليب لتخذة لتزيينه وتزويقه وتحسينه ، اساليب متحدة به اتحاداً لامحيد عنه .

ولقد كادت الصنائع الفنية الاسلامية في القرن الثالث للهجرة، تكون مجهولة الى عهدنا . ولهذا اصبحت نتائج التنقيبات في الغاية القصوى من الخطر والشان العلمي،واول ماشرع به في سامرآء كان رفع كل مايغشى اخربة الجامع الاعظم الذى بناه المتوكل على الله ، والمنارة الغريبة البناء الموجودة فيه ، وهى المنارة المعروفة باسم « الملوية » وقد بنيت على غرار برج بابل او الزقورة او الذكورة البابلية .

وبعد ان ظهر للعيان صحن الجامع بانت كل البيان البناية الداخلية وعمد الرخام وما يزينه في الداخل من نقوش مطبوعة وتصاوير ملونة وفسيفساء . ولقد دقق الدكتور هرتسفلد نظره في بعض دور الخاصة المجاورة للمدينة الحديثة فاذا هو امام مدينة مدفونة في الشرق دفن بمبائي في الغرب . ووجد غرفاً وحجراً وردهات قد زينت جدرانها وغشيت حيطانها بتصاوير شرقية منقوشة نقشاً بارزاً وغائراً في الجص وهى في غاية البهاء والجمال ، وكلها محفوظة احسن الحفظ ، كأن البناة قد غادروها قبل ان يدخلها اهل البحث . هذا ولا ترى النقش على الجص فقط بل انك تشاهد تصاوير ملونة في مواضع الجص الفارغة من النقوش ، وهناك ايضاً تصاوير مختلفة الالوان بل وصور اناس كلها ملونة على ابدع مثال وهو امر في غاية الندرة في تاريخ الصناعة الاسلامية ان فنية وان بنائية .

وخلاصة القول انك تجد في سامرآء كنوز فن ودفائن صناعة لم تسمع بمثلها من افواه الناس والمسافرين ، كما لم تشاهد العيان

نظيرها .

ولقد سبر الدكتور بعض السبر قصراً واقعاً على عدوة دجلة اليمنى يعرف (بقصر العاشق) ورأى انه يتابع السبر بعد ذلك .

اما الآن فانه يجرى التنقيب فى قصر مبنى قد افترش من الارض فسحة عظيمة تناهز كيلومترين مربعين ونصفاً . وهو واقع فى جنوبى سامراء واسمه « المتقور » وهو ولا شك القصر المعروف سابقاً باسم « بلكوارا » الذى بناه وسكنه المعتز بالله بن المتوكل على الله ، وذلك قبل ارتقائه عرش الخلافة .

الى هنا توقف جواد القلم عن الجرى فى ميدان التنقيب ونلفت عنانه الى مايجب ان تحوم عليه اطيار الافكار والانظار وهو : انه ليس من ينكر اليوم المنافع الجزيلة التى انتفع منها الناس اثر التنقيبات التى اجراها اهل البحث ، وممن انتفع منها بوجه اخص محبو تاريخ بلادنا ومجد السلف اجدادنا ، مجد من شانه ان يفاخر به ابناء هذا العصر ليندفعوا الى التشبه واللحاق بهم ، ويعيدوا سابق عز هذه البلاد ، ويستعيدوا ماسلب منهم اويسلب ليحافظوا على مالديهم من وسائط الغنى والثراء والنماء فى مستقبل الايام .

وفى هذا الصدد لايمكننا السكوت عن ابراز مايكنه صدرنا من الاسف واللهف . فان هذه التحف التى ازيح عنها الستار ، ذاك الستار الذى سدله عليها الزمان مع بوائقه . والجو مع تقلباته . اذا بقيت مكشوفة الوجه والظاهر . فانها تكون عرضة للتلف

العاجل . ومما يساعد على ذلك قانون الآثار والعاديات نفسه ذلك القانون الذى يمنع كل المنع نقل الآثار القديمة باى وجه كان . ومع ذلك فان المتاجرين بها يتخذون ادق الوسائل واوفاها بالمطلوب لتحقيق امانيهم ، اى انهم يتوصلون الى مشترى مايريدون بدون ان يقعوا فى شرك التبعة المشؤومة ، لانهم يتخذون من الظواهر ماينيلهم مرغوبهم وينجيهم من البلايا التى تقع فى مهاويها من لايحسن مزاولة هذه التجارة واذا انعمت النظر فى ماياع ويشترى فى اسواق باريس من الآثار العادية تجد ثلاثة ارباعها قادمة من البلاد العثمانية ، وقد بعث بها الى فرنسة خفية وتهريباً ، فتباع هناك بأثمان باهظة ينتفع بها من يشتريها فتخسرها الدولة خسارة لامقابل لها ، بل ويخسرها اصحاب تلك الديار التى كانت فيها ، لابل ويفقد منافعها اصحاب دور التحف الافرنجية والعثمانية كما يفقد منافعها من قد الهيج بجمعها ليستفيد منها فائدة علمية ،ومن ثم يفقدها العلم واصحابه كل الفقد لانها تقع بيد جهلة لايعرفون قدرها . اذلا هم لهم الا هم جمع المال باى واسطة كانت وعلى اى وجه يكون ، اريد بهم تجار الآثار العادية فى باريس .

فمما تقدم ذكره وتقريره ترى النتائج المشؤومة التى تتولد من قانون حصر الآثار المثبت فى قوانين الدولة ، وكيف انه مضر بالعلم . فاذاً لابد من اتخاذ مايبعد هذا الخطر ويفيد الدولة والامة ولهذا اعرض هذا الفكر :

ان قانون حصر الآثار القديمة لايتكفل لنا ابداً بحفظها في محلها ولا في محل آخر خاص بها . وهي طامة كبرى لايعرف عقباها الوخيمة الا من يقدر التحف حق قدرها . واننا لانظن مثلاً ان المتحفة الشاهانية تغنى باتخاذ الوسائط اللازمة والناس المهرة لنزع ماعلى جدران وحيطان سامرآء من المزينات والمزوقات والمحسنات البنائية وجعلها في صناديق ونقلها الى الاستانة ، لانه قبل ان يخطر لها هذا الخاطر تسبقهم الامطار والارياح وسائر عوامل الجو الى ايقاع الاضرار بهذه الكنوز الصناعية فضلاً عن وصول ايدي تجار العاديات اليها فتعبث بها بل ولا تبقى ولا تذر ، وتنزع ماهنالك من عجيب التصاوير والنقوش حتى لايبقى لها ادنى اثر .

نعم قد عنى محبو الآثار في ديار مصر بحفظ مايجدونه فيها وقد اتخذوا جميع الوسائط اللازمة للانتفاع بما يكتشفونه . وربما كانت تلك الوسائط تضاهي الوسائط المتخذة في بلاد الافرنج ، بل ولعلها تفوقها بكثير لحداثتها ووفائها بالغرض على احسن وجه ، لكن اين بلادنا من ديار مصر . ومع هذا فان القانون هناك يبيح تقاسم الآثار بين الحكومة وبين الناقب ، كما تجيز له نقل تلك العاديات الى بلاده . فهذا ايضاً مثال يحتذى عليه ويتبع لحفظ هذه الآثار من التلف والفساد والاضمحلال او ان احسنت ظناً : من الضياع والانتشار فرادى مبثوثة على غير جدوى . ونحن نستحسن هذه الطريقة ، ولا سيما اذا كانت تلك العاديات مزدوجة المثال ، فان الناقب يحرص عليها اكثر من حرصه

على حياته . فاملنا اذاً من الحكومة ان تسعى الى اتباع هذا القانون الحسن النتيجة لها ولمن يحث وينقب عنها .

وان لم يصح هذا الرأى فلنا فكر آخر فى حفظ هذه الآثار وهو ان تسعى الولاية فى اقامة دار للتحف فى الحاضرة كما يرى مثل هذه الدور فى سائر البلاد المتمدنة ، افهذا ايضاً من الصعب الممتنع او من المستحيل البعيد ؟ الا يوجد مثل هذه المتاحف فى بلاد الهند ومصر وتونس لابل ونجد اليوم فى قونية نفسها من بلاد الدولة العلية متحفة صغيرة حسنة ، افلا يمكن لبعض اعيان مدينتنا الزوراء الزاهرة ان يتضافروا ويتكاتفوا للاشتراك فى جمع مال ، لمثل هذا المشروع المفيد الذى يزرى بجمع اللآل . فهذا العمل ، وايم الحق ، احد تلك الاعمال التى تخلد اسماء الرجال . وتجارى بها اهل الديار الغربية . وتفاخرهم بآثار اجدادنا مفاخرة تعود فائدتها علينا وعلى بلادنا العربية ان الله على كل شئ قدير وبالاجابة جدير .

وسنكتب فى وصف سامرآء ووصف ماشاهدناه فيها من الآثار الطوامس ، والطلول الدوارس ، وصفا يفيد متبغى الآثار ، ومقتبسى الاخبار مما يدهش القارئ ويبهر السامع فى العدد الآتى وما بعده ان شاء الله تعالى .

(للبحث صلة) م . . كاظم الدجيلى

يقظة العلم فى ديار العراق

اسلفنا القول فى العدد الاول من هذه المجلة ماكان لاهل العراق من اليد العاملة فى جمع شتات لغة العرب قبل الاسلام وبعده .